

# محمد

## مخاطبًا في القرآن

حافظ قويعة  
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

## توطئة:

يُناهز عدد المسلمين اليوم، وفق آخر الإحصائيات ملياراً وثلاثمائة مليون نسمة<sup>1</sup>، أغلبهم أميون، والفئة القليلة المتمدرسة منهم لا تحسن فهم العربية الفصحى، وهذا ما جعل من عدد القادرين على تعقل نصّ الوحي نسبة لا تتجاوز 5% من المسلمين<sup>2</sup>. أمّا إذا نظرنا إلى المسألة من زاوية الدراسات العلميّة المعاصرة، فإنّ المتمثّلين للقرآن، في ضوء المقاربات الحديثة للكتب المقدّسة والنصّ الديني عموماً، تصبح ضئيلة جدّاً؛ ولعلّ هذا ما دفع المفكّر يوسف الصديق إلى القول بوقاحة جميلة، "نحن لم نقرأ القرآن البتّة"<sup>3</sup>. ثمّة إذن، فجوة كبيرة تفصل مسلم اليوم عن القرآن، لا من جهة المبادئ العفديّة العامّة التي يتضمّنها (التوحيد، الإيمان بالرّسل والملائكة واليوم الآخر، وإلزاميّة الصلّاة والزكاة والصوم والحجّ وبعض الأحكام الشرعيّة)، إنّما من جهة مقاصده التواصليّة كخطاب بلّغه محمد بن عبد الله، في لحظة تاريخيّة مخصوصة، إلى سكّان منطقة الحجاز، خلال العقدين الثّاني والثّالث من القرن السّابع بعد الميلاد، وهي فجوة على مستويين:

- مستوى العامّة التي لا تفقه في نصّ الوحي شيئاً، وتكتفي بترديد بعض سورته أثناء الصلّاة أو خلال بعض المناسبات الدينيّة؛ وهي من هذا المنظور أشبه بـ "الحمار يحمّل أسفاراً" حسب تعبير القرآن نفسه. (الجمعة 5/62)

- مستوى الخاصّة التي تشمل فئتين، إحداهما قادرة عند الاقتضاء على التّعامل مع النصّ في دلّالته المباشرة، باعتبار إتقانها للعربيّة الكلاسيكيّة، شأن أغلب المتعلّمين<sup>4</sup>. وثانيتهما قادرة على فهم القرآن، وقد نهضت نخبة منها لتفسيره، شأن وهبة الزحيلي<sup>5</sup> ومحمد علي الصّابوني<sup>6</sup> ومحمد متولي شعراوي<sup>7</sup>؛ غير أنّ أصحاب هذه التّفاسير بقوا في نهاية المطاف مشدودين إلى مقتضيات مؤسّسة التّفسير الكلاسيكي، من قبيل التّسليم بعصمة النّبويّ، وبإعجاز النصّ، وبالمناسبة بين آخر السّورة والبدائية التي تليها في ترتيب المصحف<sup>8</sup>، وتندرج ضمن هذا التّوجّه، ويا للمفارقة! بعض الأعمال الأكاديميّة "الراقية"، مثل "الموسوعة القرآنيّة المتخصّصة" التي شارك في تحريرها اثنا عشر أستاذاً، جلّهم من جامعة الأزهر، وأستاذاً آخر من جامعة عين

<sup>1</sup>- Le monde: (La vie), L'Atlas des religions Hors série, Editions 2011. P.16

<sup>2</sup>- Mohammed Ali Amir- Moezzi, In Dictionnaire du Coran (S.D).M.A.Moezzi, Paris Robert Laffont 2007. P. XII

<sup>3</sup>- Youssef SEDDIK. Nous n'avons jamais lu le Coran. Paris. Editions de l'Aube,2006

<sup>4</sup>- نقول عند الاقتضاء؛ أي إذا فرض عليها إعمال النظر مباشرة في بعض الآي القرآني، لأنّ أغلب المتعلّمين المسلمين من أصحاب الشهادات العليا (مهندسين، أطباء، رجال أعمال، أساتذة، يجهلون الكثير من المعطيات الأساسيّة عن القرآن، وهم من هذه الزاوية لا يختلفون عن عامّة الناس، ولعلّ هذا ما يفسر سهولة اختراق خطاب الدعاة السلفيين عقولهم. وفي هذا السياق، سبق لي أن سألت طلبتي في الجامعة في عدّة مناسبات عن معنى "وقّب" في سورة الفلق، فلم يجبني أحد رغم أنّ الكثير منهم يؤدون الصلّاة يومياً ويتلون هذه السورة!

<sup>5</sup>- وهبة الزحيلي، التّفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، 15 مجلداً، 30 جزءاً، بيروت. دمشق، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، 1991

<sup>6</sup>- محمد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، 3 مجلدات، بيروت، دار القلم، 1976

<sup>7</sup>- محمد متولي شعراوي، خواطري حول القرآن الكريم، القاهرة، أخبار اليوم، 1991

<sup>8</sup>- انظر عن التّسليم بالمناسبة مثلاً تفسير فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب. بيروت، دار الفكر، 1990، الجزء 30، ص 188

شمس<sup>9</sup>، وهي في اعتقادنا، مع تقديرنا للمجهودات التي بذلها أصحابها، تبقى دون التفسير الكلاسيكية عمقاً وانفتاحاً، ناهيك ومقارنة بالموسوعات القرآنية الصادرة في الغرب خلال نفس الفترة تقريباً.<sup>10</sup>

معنى هذا أنّ النخبة المثقفة في العالم العربي الإسلامي مطالبة اليوم، لا سيما بعد هيمنة خطاب الجهل المقدّس<sup>11</sup> على النسيج الثقافي العام، بالسعي إلى التقليل من هذه الفجوة التي تفصل المسلم عن كتابه المقدّس، لأنّ الخطابات السائدة عن القرآن اليوم، ليست متخلّفة عن المنجز في الغرب فحسب، بل هي متخلّفة حتّى عن منجزات الخطاب التفسيري القديم.<sup>12</sup>

في هذا السياق، تندرج دراستنا لمحمد "مخاطباً في القرآن"، وهي مسألة لم تحظ في تقديرنا بالحدّ الأدنى من البحث، مقارنة بمسائل أخرى من قبيل الوحي أو جمع القرآن أو القصص القرآني أو آيات الأحكام الشرعية.

## 1- محمد المخاطب السامع

المخاطب عموماً، هو كلّ كائن يوجّه إليه الكلام من قبل مخاطبٍ معيّن. ويعبّر عن المخاطب في مجال اللسانيات المعاصرة، ونظرية التلّفظ، وتحليل الخطاب بمصطلحات عدّة، من قبيل "المرسل إليه" أو "المتقبّل" أو "القارئ" أو "المتلفّظ المصاحب" أو "المتلقّي" أو "السامع".<sup>13</sup>

من بين هذه المصطلحات، يبدو لنا مصطلح "السامع" الأنسب في قضية الحال، لأنّ محمّداً تلقّى الوحي عن طريق السّمع. يقول جلال الدين السيوطي: "وقد ذكر العلماء للوحي كميّات إحداها أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس"، و في مسند أحمد "عن عبد الله بن عمر، سألت النبي صلى الله عليه وسلّم هل تحسّ بالوحي؟ فقال أسمع صلصلة ثمّ أسكت عند ذلك، فما من مرّة يُوحى إليّ إلا ظننت نفسي تفيض. قال الخطابي: "والمراد

<sup>9</sup> الموسوعة القرآنية المتخصصة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 2005

<sup>10</sup> من هذه الموسوعات نذكر بالخصوص:

-Encyclopaedia of the Quran. 5 volumes, Brill. Leidier. Jane Dammen McAuliffe, Editor. 2001. 2006

- Dictionnaire du Coran (S.D), Mohammed Ali Amir- Moezzi, Paris, 2007

<sup>11</sup> هذه عبارة مقتبسة من عنوان كتاب أوليفي رُوا. أحد المختصين في دراسة الإسلام المعاصر. انظر:

-Olivier Roy, La sainte ignorance, le temps de la religion sans culture, Paris Editions du seuil. 2008.

و المقصود هنا، الخطاب السلفي الذي ينهض بنشره الدعاة والأئمة عبر مختلف الأجهزة الإيديولوجية للدولة (المساجد. وسائل الإعلام السمعية البصرية. دور النشر...)، ويمكن اعتبار أعمال محمد متولي شعراوي وخطبته عينة ممثلة لهذا الخطاب.

<sup>12</sup> يمكنك أن تقارن في هذا الصدد بين انفتاحية تفسير الطبري مثلاً (جامع البيان في تأويل القرآن)، من جهة قبوله للعديد من التأويل "المحرجة"، وبين ضيق أفق بعض التفسير المعاصرة مثل "تفسير وهبة الرّحيلي".

<sup>13</sup> انظر عن هذه المفاهيم: معجم تحليل الخطاب، إشراف باتريك شارودو. دومينيك منغنو، ترجمة عبد القادر المهيري- حمادي صمود، تونس، المركز الوطني للترجمة، 2008، فصل مرسل إليه Destinataire، ص ص 164-168

أنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبت أول ما سمعه حتى يفهمه بعد<sup>14</sup>؛ معنى هذا أن محمداً، المخاطب في القرآن بصيغ مختلفة، بقي في كل الأحوال سامعاً لا قارئاً. ويتعين في هذا السياق، تأويل عبارة التنزيل القرآني من قبيل "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا" (الإنسان 23/76)، و" تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً" (الفرقان 1/25)، على معنى الإيصال الصوتي للكلام (الوحي) عن طريق السمع. وهذا ما رفضه خصوم الدعوة في البداية "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَاثِهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)" (الإسراء 90/17-93). كما رفضه أهل الكتاب في فترة لاحقة " يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153)." (النساء 153/4).

هكذا يتضح أن طبيعة الرسالة المحمدية؛ أي شفويتها، هي التي صدت خصوم الدعوة عن الإيمان، فضلوا دائما يطالبون باستمرار النبي برسالة أكثر حجية، لا من جهة المضمون فقط، بل من جهة الشكل أيضا، فهم يريدون كتابا؛ أي كما يقول الطبري "صحيفة تصبح عند رأسه يقرؤها"<sup>15</sup>، يقرؤها عليهم ويرونها رأي العين، كأن لسان حالهم يقول ليس الخبر كالعيان. وقد رد صوت الوحي على اعتراضهم هذا: "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" (الأنعام 7/6)، فيما يقول فخر الدين الرازي: "إن هؤلاء الكفار، لو شاهدوا نزول الكتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد، لم يؤمنوا به، بل حملوه على أنه سحر ومخرقة. والمراد من قوله: "في قرطاس" أنه لو أنزل الكتاب جملة واحدة في صحيفة واحدة، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا، لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر"<sup>16</sup>.

نستطيع القول إذن، انطلاقاً من هذه الآيات، إن المخاطب بضمير المذكر المفرد، المتصل (ك) في "عَلَيْكَ"، هو مخاطب سامع بالأساس، لكنه سامع من نوع خاص لا اعتبارين؛ أولهما أنه السامع الأول قبل كل المسلمين، وهذا ما تؤكده أول زخات الوحي "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ" (العلق 1/96) أو "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) "وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3) (المدثر 1/74-3)؛ وثانيهما أنه سامع مستجيب لا مجيب؛ بمعنى أنه يسمع ما يقال له، ويبلغه مشافهة للناس دون أن يرد على مخاطبه (الله أو جبريل)، كما هو معهود في الخطابات العادية؛ فمحمد مخاطب في القرآن هو، حسب ظاهر الوحي، مجرد مبلغ لما يسمع من كلام "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

<sup>14</sup> - الإتيان في علوم القرآن، ط4، اسطنبول تركيا، دار قهرمان للطباعة والنشر، 1978، ص 59

<sup>15</sup> - جامع البيان في تأويل القرآن، تأويل القرآن، مج 8، ص 149

<sup>16</sup> - مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، ج12، ص 485

الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" (النحل 82/16). "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ" (الشورى 48/42). وعلى هذا الأساس نقول: إنَّ القرآن خطاب في اتجاه واحد، من مرسل إلى مرسل إليه، من مخاطب إلى مخاطب، وهو في هذا المستوى من التحليل، نص لا حوارياً أصلاً (non dialogal)، لأنَّ المخاطب الأول فيه لا يرسل كلاماً إلى مخاطبه، وإن كان حقيقة متعدّد الأصوات؛ ولا شكَّ أنَّ هذه السمة؛ أعني تعددية الأصوات، لا الحوارية، هي التي تضيء عليه طابع الحجاجية، ذلك أنَّ الخطاب الحجاجي، كما تقول "روته موسى"، هو دائماً تعددي الأصوات، لكنّه ليس بالضرورة حوارياً<sup>18</sup>. وفي ضوء هذا المعطى، يتعيّن اعتبار القرآن خطاباً ذا وظيفة إقناعية، بالمعنى الياكوبسوني للعبارة، بدليل كثرة قرائن المخاطبة فيه، بداية من "إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ" (العلق 1/96) إلى "وَاثَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا" (المائدة 108/5)<sup>19</sup>، مروراً بمختلف المخاطبات من قبيل "يا أيُّها النَّاسُ" أو "يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا" أو "يا أهل الكتاب" أو "يا نساء النَّبِيِّ" (الأحزاب 32/33).

إنَّ خصوصية محمد بصفته سامعاً في ضوء الاعتبارين السابقين، تثير في رأينا إشكالات يتعيّن الانتباه إليها؛ فبقدر ما يدفع الاعتبار الأوّل (محمد أوّل سامع للوحي) إلى الترفيع من منزلة صاحب الرسالة، يدفع الاعتبار الثاني (كونه لا يردّ على مخاطبه بالكلام) إلى التقليل من تلك الرفعة، لأنّه ليس طرفاً فاعلاً في سياق الخطاب، إنّما هو مفعول به؛ فهو من زاوية النَّظَر هذه بمنزلة العبد من سيّده، يسمع فينجز، ولا ينبس ببنت شفة. ولا غرابة في هذا من المنظور الديني؛ فالنبيّ عبد الله كسائر البشر "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ" (البقرة 2/23)، "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ" (البقرة 2/186). بل يمكن القول من المنظور الصوفي، إنّ الخضوع للرّب، والسمع والطاعة المطلقة والدونية، في مستوى الخطاب، هي عين الشرف ورفعة الدرجة.

يبدو صاحب الرسالة، إذن، مخاطباً سلبياً، لأنّه سامع مبلغ لا محاور، بل يمكن القول إنّ سامع مستسلم لأمر مخاطبه (ربه)، ولعلّ في عبارة "وَأَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" خير دليل على ذلك. يقول فخر الدين الرّازي في تفسيره لهذه الآية: "وتقريره أنّ الله تعالى لمّا قال في أوّل سورة "ق" والقرآن المجيد "بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ" (ق/1-2)، وذكر ما يدفع تعجبهم وبيّن كونه منذراً صادقاً (...)، وأتمّ الكلام، قال إنّ في ذلك؛ أي القرآن الذي سبق ذكره، لذكرى لمن له قلب أو لمن يستمع، ثمّ قال؛ أي المنذر الذي تعجبتم منه، كما قال تعالى: "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا" (الفتح 8)، وقال تعالى: "ليكون الرسول شهيداً عليكم" (الحج 78)<sup>20</sup>، معنى

<sup>17</sup>- انظر آيات أخرى في مادة بلاغ ضمن محمد فؤاد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث، 2001، ص 166

<sup>18</sup>- Ruth Amossy, l'argumentation dans le discours, Paris, Armand Colin.2006. P.41

<sup>19</sup>- اعتباراً أنّ سورة المائدة هي الأخيرة في ترتيب النزول، أو "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا" (النصر 3/111) أو "وَاثَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ" (البقرة 2/281) أو "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة 9/128). انظر في هذا الصدد بدر الدين الزركشي وجلال السيوطي، الإتيان في علوم القرآن. ج 1، النوع الثامن معرفة آخر ما نزل، ص ص 35-38

<sup>20</sup>- مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، ج 23، ص 253

هذا أنّ محمداً لم يسمع الوحي بأذنيه فقط سماعاً حسيّاً، إنّما سمعه بقلبه أيضاً وبكلّ وجدانه، فتبناه بكلّ صدق، ويستطيع كلّ من يعمل النّظر في نصّ الوحي التّأكد من ذلك، وليس من قرينة أوضح في هذا الصدد من عبارة "قلّ" التي تعود باستمرار في ثنايا النّص، وخاصةً منها تلك التي ترد في مقدّمة بعض السّور، مثل سورة الإخلاص وسورة الكافرون، فضلاً عن المعوذتين. فالمأمور بالقول عادة مطالب بنطق مقول القول، لا عبارة الأمر بالقول؛ من ذلك مثلاً، أنّ الأب الذي يطلب من ابنه أن يستقبل النّاس بأدب عند الصّباح، قد يقول له: "قل صباح الخير"، فيجيب الطّفّل مبدئياً: "صباح الخير"، ولا ينتظر منه أن يعيد عبارة "قل صباح الخير"، ولو فعل ذلك لا اعتبر ساذجاً أو غير مدرك لسنن التّواصل الاجتماعي؛ فماذا تعني إذن تلاوة محمد عبارة "قلّ" في مبتدأ القول؟ هل يمكن اعتباره شخصاً ساذجاً أو غير مدرك لسنن التّواصل؟ كلا، لأنّ محمداً تلقّى الوحي، وهو في سنّ الأربعين، إنّما مرّد ذلك إلى كونه تلقّى الأمر بالقول بكامل الجديّة أو بالأحرى بكلّ صدقيّة، وبما أنّ هذا الأمر صادر في اعتقاده عن ذات الإلهيّة، التي توجّهت إليه منذ البداية بأمر القراءة؛ أي التّلاوة والتّرديد، فلم يكن أمامه سوى الامتثال الكامل، ونقل ما سمعه كما هو بكلّ حذافيره. ولا غرابة في ذلك البتّة، لأنّ المقول له تقيل: "يا أيّها المزمّل. قم اللّيل إلّا قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً. إنّنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً." (المزمّل 4-1/73)، بل هو أثقل من الجبال "لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله" (الحشر 21/59).

ليس ثمة في اعتقادنا، ما يدعو إلى التّشكيك في أنّ محمداً تمثّل الرّسالة على هذا النّحو. وعلى هذا الأساس، يمكن القول من منظور تداوليّ، أنّ خطاب الوحي برّمته هو عمل قوليّ كبير<sup>21</sup> ينتمي إلى صنف الأعمال التّوجيهيّة،<sup>22</sup> وهو من زاوية التأثير، عمل قوليّ ناجح، بما أنّ المخاطب أنجزه على النّحو المطلوب.<sup>23</sup> ويبدو أنّ بعض العلماء المسلمين العارفين بخصائص القول القرآني، أدركوا شيئاً من هذا. يقول الجويني: "كلام الله المنزل قسمان، قسم قال الله لجبريل: قل للنبيّ الذي أنت مرسل إليه، إنّ الله يقول افعل كذا وكذا وأمر بكذا، ففهم جبريل ما قاله ربّه، ثمّ نزل على ذلك النبيّ، وقال له ما قاله ربّه، ولم تكن العبارة تلك العبارة كما يقول الملك لمن يثق فيه، قل لفلان يقول لك الملك اجتهد في الخدمة واجمع جندك للقتال، فإن قال الرّسول يقول لك الملك لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجند تتفرّق، وحثّهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء

<sup>21</sup>- بالإنجليزية: "Macro speech act" انظر:

- Jacob.Mey, Pragmatics : An Introduction, Blackwell, Cambridge, USA, 2001, pp181-192

<sup>22</sup>- توجيهي: تعريب لـ "Directif" انظر:

شكري ميخوت، نظريّة الأعمال اللّغويّة تونس مسكلياني للنشر، 2008، ص 92

<sup>23</sup>- عن نجاح العمل القوليّ انظر:

Catherine Kerbrat-Orecchioni, Les actes de langage dans le discours : Théories et fonctionnement, Paris, Nathan, 2001, pp.29-31

الرّسالة. وقسم آخر قال الله لجبريل اقرأ على النبيّ هذا الكتاب، فنزل جبريل بكلمة من الله، من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين، ويقول له اقرأه على فلان، وهو لا يغيّر منه كلمة ولا حرفاً<sup>24</sup>.

يبدو كلام الجويني هذا على غاية من الخطورة، لأنّه ينسب الصياغة اللفظية لقسم من القرآن إلى النبيّ نفسه، بما يفضي إلى نفس مقولة الإعجاز القائمة على اعتبار القرآن كلام الله منطوقاً ومفهوماً، ولهذا لم يلبث السيوطي أن سارع في الردّ عليه قائلاً: "قلت القرآن هو القسم الثاني، والقسم الأوّل هو السنّة (...)، لأنّ جبريل أداه (أي القرآن) باللفظ، ولم يبح له إحياءه بالمعنى، والسّر في ذلك أنّ المقصود منه التّعبد بلفظه والإعجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه<sup>25</sup>. ومعلوم أنّ قول السيوطي هذا هو ما استقرّ في الضمير الجمعي الإسلامي إلى اليوم؛ أي إنّ القرآن كلام الله بالمعنى الحرفي للعبارة، كما جاء في التعريفات الرّسمية للقرآن من قبيل "القرآن كتاب الله المعجز الذي أنزله الله على رسوله محمّد صلى الله عليه وسلم<sup>26</sup>" أو القرآن الكريم كلام الله المنزّل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين بواسطة جبريل عليه السّلام، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر كتابة ومشافهة، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سورة منه، المبدوء بالفاتحة والمختوم بسورة الناس، وهو معجزة الإسلام الخالدة"<sup>27</sup>.

ليس غرضنا في هذا المستوى من التحليل الخوض في إشكالية نسبة القرآن إلى محمّد أم لغيره، من زاوية نظر تاريخية، والتي بقيت تمثّل إحدى هواجس الفكر الاستشراقي منذ قرنين، على الأقلّ إلى اليوم، إنّما سعينا إلى كشف النقاب عن علاقة المرسل إليه في خطاب الوحي بالرّسالة ذاتها، من منظور تلفظي وتداولي. ومن زاوية النّظر هذه، يبدو لنا في ضوء المعطيات السابقة، أنّ محمّداً المخاطب في القرآن بصفته تلك، طرف مستقلّ عن الرّسالة استقلال كلّ مكلف بإيصال الرّسائل إلى أصحابها، حتّى ولو كان هو نفسه موضوع حديث فيها، بل حتّى ولو اطّلع عليها. وفي نصّ الوحي آيات عديدة تؤكّد هذا الأمر، لعلّ أهمّها ما جاء في سورة يونس: "وَإِذَا تُنذِرُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَفَاتٍ نَفْسِي إِنْ أُنْبِئُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنْني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16)" (يونس 15-16).

بطبيعة الحال، تبقى هذه الآيات نفسها غير كافية للبرهنة موضوعياً على الحيادية المطلقة لصاحب الرّسالة<sup>28</sup>. لكنّ الثابت أنّه بصفته مخاطباً في نصّ الوحي لا يستقيم أن يكون منتجاً في نفس الوقت، لأنّ في نصّ الوحي مقاطع عديدة تعاتبه، بل تهدّده صراحة كما سنوضح لاحقاً. صحيح، أنه قد يحدث للمرء أن يخاطب

<sup>24</sup> - عن جلال الدّين السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، النوع السّادس عشر في كيفية إنزاله، ج1، ص 59

<sup>25</sup> - المرجع نفسه، ص 59

<sup>26</sup> - معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الشروق، 1981، ص 500

<sup>27</sup> - الموسوعة العربية العالمية الإسلامية، السعودية. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، 1998، ج18، ص 113

<sup>28</sup> - من وجهة نظر غير ملزمة بصدق الرّسالة شأن ما هو سائد في الكتابات الاستشراقية، باعتبار أنّ ما يقوله القرآن عن القرآن ليس حجة كافية.

نفسه ويعاتبها في سياقات مخصوصة، لكن المسألة في قضية الحال أبعد ما تكون عن هذه الحالات الاستثنائية. والحاصل من كل هذا، هو أن كل من يعمل النظر في الخطاب القرآني، من منظور تلفظي، لا مناص له من الإقرار بوجود صوت خارجي عن الذات المتلقية لخطاب الوحي، سواء كان هذا الصوت هيئة ميتافيزيقية (جبريل، الله) أم إنسانا معاصرا لمحمد، كما قال خصومه: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النحل 103/16)، أو كما يقول المستشرقون، استنادا إلى بعض الروايات القديمة، واعتمادا على بعض المفردات الأعجمية في القرآن<sup>29</sup> أو لا وعي النبي، كما في بعض مقاربات التحليل النفسي.<sup>30</sup>

بيد أن الإقرار بوجود صوت خارجي منفصل عن المرسل إليه في نص الوحي، لا يفضي بالضرورة إلى الإقرار بأنه مجرد مبلغ للرسالة أو بالأحرى لا يتناقض آليا مع الآيات المثبتة لقصر وظيفته على الإبلاغ، ولا مع حياديته في نقل بعض المقاطع القرآنية، على الأقل بعد أن أثبتت مقاربات تحليل الخطاب، منذ بضعة عقود، استحالة تغييب المرسل إليه عن دائرة الملفوظ، وبرهنت على العكس من ذلك حضوره الشامل بالضرورة فيه، تقول أوريكيوني: "هكذا نلاحظ أن المرسل إليه حاضر كلياً في الملفوظ، ذلك أن الهيئة السامعة هي نفسها منتجة للخطاب، والمتلقي ليس مجرد وعاء (réceptacle) سلبي للدلالات الخطابية".<sup>31</sup>

في ضوء هذا المعطى العلمي المعاصر، سنعمد في ما يلي إلى استجلاء صورة المرسل إليه في نص الوحي، بصفته مخاطبا بصيغ مختلفة، ومأمورا لا بتبليغ الرسالة فحسب، بل بتعديل سلوكه في اتجاه مخصوص، وإلزامه باتخاذ مواقف لم يكن بالضرورة مستعداً لأخذها، أو كان متردداً في شأنها.

<sup>29</sup>- انظر حول هذه الإشكالية في السياق الاستشراقي:

Claude Gillot: Reconsidering the authorship of the Qur'an: is the Qur'an partly the fruit of a progressive and collective work? in "The Qur'an in its historical context, Edited by Gabriel.

Said Reynolds. London and new York, Rutledge, Taylor and Francis Group, 2008, p88-108

<sup>30</sup>- من الأمثلة عن هذه المقاربات انظر:

Fethi Benslama, La nuit brisée : Muhammad et l'énonciation islamique, Paris, Editions Ramsay. 1988

<sup>31</sup>- Catherine Kerbat-Orecchioni, L'Enonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand Colin; Édition 1980, p161



## 2- محمد المخاطب الفاعل

من اللافت للانتباه، أن اسم العلم "محمد" لم يرد في القرآن سوى أربع مرّات<sup>32</sup>

في السياقات التالية:

1. الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) (محمد 1/47-2)
2. وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلْفُوهُ فَذَرْتُمْهُ وَرَأَيْتُمُوهُ فَكَفَرْتُمْ عَنْهُ وَكُنْتُمْ تُخِشُونَ اللَّهَ وَلَقَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ رِجَالًا أَنْقَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) (آل عمران 143/3-144)
3. مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40) (الأحزاب 40/33)
4. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... (الفتح 28/48-29)

خامرنا بعض الأسئلة، ونحن نعمل النظر في هذه الظاهرة، منها:

- لماذا لم يذكر محمد باسمه في القرآن كله سوى أربع مرّات، رغم رفعة منزلته كشخصية أساسية في نصّ الوحي، علماً أنّ الإحالة على الشخصية باسمها أشرف مبدئياً من الإحالة عليها بالضمير أو بصيغ أخرى، مهما كان فيها من إجلال واحترام من قبيل "يا أيها النبي" أو "يا أيها الرسول"؟

- لماذا غاب اسم محمد في كامل القرآن المكي، وفي ما يناهز الثلث الأول من القرآن المدني، مقابل حضور فجائي، وإن كان ضعيفاً في بقية القرآن المدني؟

- لماذا وردت جميع الإحالات على الاسم "محمد" العلم بصفته شخصية متحدّثاً عنها، لا بصفته شخصية مخاطبة، من قبيل "يا محمد" أو حتى "يا أيها الرسول محمد"؟

ليس بوسعنا الجواب عن هذه الأسئلة، لأنّ مدار بحثنا عن محمد مخاطباً في القرآن، ولكتنا ننبه إلى ضرورة استحضارها في سياق ما سنذكر لاحقاً، لكننا نفترض مبدئياً أنّ لهذه الظاهرة علاقة بتغيير وضع

<sup>32</sup>- بغض النظر عن اسم "أحمد" الوارد في الآية السادسة من سورة الصفّ.



16	(3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنَقِرُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنَيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذَّكَرَى (9)	
عيس 17	80	عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهَ يَرْكَبِي (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذَّكَرَى (4) أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبِي (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11)
النازعات 20	79	هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)
الغاشية 21	88	فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23)
الطور 22	52	فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (30) فَلْيَرْبُصُوا فإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)
الواقعة 23	56	وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ (48) قُلْ إِنْ الْأُولَى وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)
الحاقة 24	69	فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَالِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)
النبا 26	78	إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (35) جَزَاءً مِنْ

رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا (36)		
لَا تَحْرَاكَ بِهِ لِسَانُكَ لِنَتَعَجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَاِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ (19)	75	القيامة 27
تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)	55	الرحمان 28
وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)	97	القدر 29
فَاعْرُضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلُغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى (30)	53	النجم 30
فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)	70	المعارج 32
يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ (1) فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا (2) نَصَفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ	73	المزمل 33
وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26)	76	الإنسان 34
فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10) دَرَنِي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا		بقية المدثر
إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)	108	الكوثر 37
لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَالْوَالِدِ وَمَا وُلِدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4)	90	البلد 39
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1)	105	الفيل 40
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)	89	الفجر 41

البروج 42	85	إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (13) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)
الإخلاص 43	112	قل هو الله أحد
الكافرون 44	109	قل يا أيها الكافرون
العلق 46	113	قل أعوذ برب الفلق
الناس 47	114	قل أعوذ برب الناس

إنَّ أوَّل ما يلفت الانتباه في هذه المقاطع القرآنيَّة، هو كثرة أفعال الأمر الموجهة إلى صاحب الرِّسالة، سواء بصيغة "افعل" الدالَّة على الأمر بإنجاز الفعل، مثل ( اقرأ، قم، أنذر، كبر، طهر، اهجِر، اصبر، حدِّث، ارغب، مهل، أمهل، سبح، ذكّر، بشر، قل، ذر، اتَّبِع، اقترب، اسجد، رتل، تبتل، صلّ، انحر)، أو بصيغة "لا تفعل" الدالَّة على النهي ( لا تمنن، لا تفهر، لا تنهر، لا تطع، لا تحرك)، أو بصيغة الاستفهام خاصَّة "أرأيت".

و نلاحظ، في نفس المستوى من الأهميَّة، تواتر ضمير المخاطب المتَّصل "الكاف" بعد "رب"؛ أي "ربك" التي وردت فيما أحصينا سبعا وثلاثين مرَّة. أمَّا ضمير المخاطب "أنت" المنفصل والمحض لمخاطبة الشَّخص الفرد في مقام خطابيّ (un contexte discursif)، فقد أحصينا وروده في هذه الفترة ستّ مرّات؛ هي "فَأَنْتَ لَهُ نَصْدَى" (عبس 6/80)، "فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى" (عبس 10/80)، "فِيْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا" (النازعات 43/20)، " فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ" (الغاشية 21/21)، " فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ" (الطور 29/22) و "وَأَنْتَ جِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ" (البلد 90/39).

تحتاج عبارات الأمر والنهي هذه إلى دراسة معمّقة، وسنكتفي في هذا السياق بالوقوف عند بعضها، لاستجلاء صورة المخاطب فيها. فنكرار الأمر بالصبر يعني، بكلّ بساطة، أنّ صاحب الرِّسالة يكاد يفقد القدرة على الصّمود، وعلى التشبُّث بمبدأ الدّعوة؛ أي التّوحيد في قضية الحال (انظر تواتر عبارة "ربك" في سياقاتها المقاليَّة). ويدعم هذا التّأويل قول صوت الوحي، ناهيا المخاطب "كَلَّا لَا تُطِعْهُ" التي تفيد، بكلّ بساطة، أنّه كاد يميل إلى الخصم وينصاع له عوض أن ينصاع إلى أوامر ربّه.

في هذا السياق، يتعيّن أيضا استحضار ما جاء في مقدّمة سورة الضّحى "وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3)؛ ففي هذا المقطع ما يدلّ بوضوح على أنّ المخاطب ينس أو كاد من ربّه،

مما جعل صوت الوحي يؤكّد له بالقسم مرّتين، أن لم يتخلّ عنه لحظة، ولهذا عاتبه على سوء ظنّه به، ثمّ ذكره بالنعم التي أسبغها عليه منذ صغر سنّه، والتي يبدو كأنّه نسيها. "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى"، ثمّ في سورة الشرح " أَلَمْ نُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ". ثمّ يأتي تكرار عبارة "إِنَّ مَعَ الْيُسْرِ يُسْرًا"، بما يعني سعي صوت الوحي إلى طمأننة المرسل إليه وشدّ أزره، ولا غرابة في ذلك لأنّ خصومه ضاقوا ذرعا بدعوته من ناحية، ثمّ لأنّه هو نفسه شعر أحيانا بصعوبة التخلّي نهائياً وبسرعة عن دين قومه، ذلك أنّ التخلّي عن دين الآباء؛ أي عن العقيدة السائدة في المجتمع، منذ القدم، ليس أمراً هيئنا على الإنسان، مهما أوتي من قوّة وعزم. ويحسن التذكير في هذا السياق، بما جاء في كتاب الأصنام لابن الكلبي، عن موقف أبي أحيحة "و كانت قريش تخصّها؛ أي العزّي، بالإعظام(...)" فلم تزل العزّي كذلك حتّى بعث الله نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فعابها وغيرها من الأصنام، ونهاهم عن عبادتها، ونزل القرآن فيها، فاشتدّ ذلك على قريش ومرض أبو أحيحة، وهو سيّد بني أميّة (...). مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه أبو لهب يعود، فوجده يبكي فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة، أمن الموت تبكي ولا بدّ منه؟ قال: لا ولكني أخاف أن لا تعبد العزّي بعدي، فقال أبو لهب: ما عبدت حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعدها لموتك، فقال أبو أحيحة: الآن علمت أنّ لي خليفة وأعجبه شدّة نصبه في عبادتها"<sup>35</sup>.

هذه القصّة ينبغي إعمال النّظر فيها من منظور تاريخيّ أنثروبولوجيّ، لا فقط من زاوية عقديّة إسلاميّة؛ فأبو أحيحة هو إنسان قبل كلّ شيء، ويعزّ عليه التخلّي على آلهة قومه، وتحزّ في نفسه الإساءة إليها، كما تحزّ في نفس المسلمين اليوم الإساءة إلى نبيّهم، ولا يجوز عقلا ولا شرعا، في تقديرنا، إخراج محمّد من دائرة هذه المنزلة البشريّة؛ فهو بشر بصريح القرآن، ويعتريه من الضّعف ما يعتري جميع البشر. ومهما يكن، فإنّ المقاطع التي استشهدنا بها، وغيرها كثير، كفيّلة – إذا قرأت في سياقاتها المقاليّة والحاليّة، دون تعسّف على منطوق القول ومفهومه – بدعم هذه الحقيقة.

وفيما يلي، بعض المقاطع القرآنيّة التي تثبت التفاعل الإنساني للرسول إزاء الرّسالة الموجهة إليه، نعني شدّة ما كابد وكثرة ما جاهد، كي ينخرط في الدّعوة الجديدة، وكي لا يسقط في حبال الشّرك، أعني في حبال دين بني قومه، لا سيما بعد أن شدّدوا الخناق عليه وكادوا يقتلونه، ممّا اضطرّه إلى هجرتهم.

1. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) (الحجّ 52/22)

2. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) (البقرة 147/2)

<sup>35</sup>- ابن الكلبي، كتاب الأصنام، القاهرة، 1924، ص 23

3. ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْفَلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْحُورًا (39)  
(الإسراء 39/17)
4. وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) (القصص 86/28-87)
5. وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120) (البقرة 120/2)
6. فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) (الشعراء 213/26)
7. فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُفْرَعُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) (يونس 94/10)
8. وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66) (الزمر 66/39-66)
9. فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكَ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (هود 12/11)

يضع المفسرون هذه الآيات تحت عناوين ملطفة، احتراماً لمقام صاحب الرسالة، من قبيل التسلية و"شد الأزر، وهذا أمر طبيعي ومعقول من منظور عقدي، بيد أن أغلبهم يعمدون في ثنايا التفسير إلى تغيير وجهة المعنى، ويتعسفون على منطوق الوحي ومفهومه، غير مكثرين بمقتضيات قواعد العربية، ولا مستلزمات البيان، فوضعوا هذه الآيات في نوع أطلقوا عليه تسمية غريبة و"بهلوانية"، ضمن وجوه المخاطبات في القرآن، مثلما فعل بدر الدين الزركشي في نوع أسماه "خطاب عين والمراد به غيره"، كقوله: "يا أيها النبي أتق الله ولا تطع الكافرين"؛ الخطاب له والمراد المؤمنون، لأنه صلى الله عليه وسلم "كان تقياً وحاشاه عن طاعة الكافرين والمنافقين (...)"، وقوله: (فإن كنت في شك مما أنزلنا...) (يونس 94). ويعترف الزركشي، أن من المفسرين من أجرى هذه الآيات على حقيقتها، كأبي عمر الزاهد في الياقوتة، ثم يقول مدعماً رأيه: "و بهذا يزول الإشكال المشهور، في أنه كيف يصح خطابه صلى الله عليه وسلم مع ثبوت عصمته عن كل ذلك (...)"، ويسترأح حينئذ من إيراد هذا السؤال من أصله<sup>36</sup>. هكذا، يستريح أحد كبار المختصين القدامى في علوم القرآن من إشكال في نص الوحي بجرّة قلم، على حساب قواعد العربية التي يتقنها ويعرف أسرارها. إنه العمى

<sup>36</sup>- السبوطي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 244

الإيديولوجي والتّمسك الدّوغمائي بمقولة عصمة النّبيّ، على حساب صوت الوحي؛ الوحي ذاته الذي نزل بلسان عربيّ مبين! وفي السّياق نفسه يقول مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت 817): "وأما الخطاب العيني الذي يراد به الغير (فإن كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك). هكذا بكلّ بساطة يصبح ضمير المخاطب المتّصل المفرد دالّاً على غيره<sup>37</sup>!"

أما المفسّرون، فقد كرّسوا هذا النّوع من التّأويل، وإليك عيّنة ممثّلة لهذا العنف في بعض متون التّفسير:

جاء في سورة الشعراء قوله تعالى: "فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ" (الشّعراء 26/213). يبدو أنّ هذه الآية مثل غيرها من الآيات المخاطبة للنّبيّ، أخرجت المفسّرين فأخرجوا لتأويلها أقاويل ما أنزل الله بها من سلطان. من ذلك قول:

• ابن جرير الطّبري (ت 310هـ)

"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (فَلَا تَدْعُ) يا محمد (مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)؛ أي لا تعبد معه معبودا غيره (فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا. وقوله: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)، يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وأنذر عشيرتك من قومك الأقربين إليك قرابة، وحذّرهم من عذابنا أن ينزل بهم بكفرهم" (جامع البيان مج 9 صص 480-481).

• أبو محمّد الحسن البغوي (ت 516هـ)

"قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: يحذّر به غيره، يقول أنت أكرم الخلق عليّ ولو اتّخذت إليها غيري لعذبتك" (تفسير البغوي، معالم التّنزيل 2002 ص 947)

• ابن الجوزي: (ت 597هـ)

قوله تعالى: "فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ" قال ابن عباس: يحذّر به غيره، يقول: أنت أكرم الخلق عليّ، ولو اتّخذت من دوني إليها لعذبتك. (زاد المسير في علم التّفسير، 2002 ص 349)

• فخر الدّين الرّازي (ت 606هـ)

ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الجواب، ابتدأ بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ }، وذلك في الحقيقة خطاب لغيره، لأن من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه إلى

<sup>37</sup>- الفيروزآبادي، بصائر التّمييز في لطائف كتاب الله العزيز، ج1، بيروت، المكتبة العلميّة، دت، ص 109



الرؤساء في الظاهر، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع، ولأنه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك، فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة. (مفاتيح الغيب،...، ج 12 ص 349)

• القرطبي (ت 681 هـ)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ) قيل: المعنى قل لمن كفرنا هذا. وقيل: هو مخاطبة له عليه لسلام وإن كان لا يفعل هذا، لَأَنَّهُ مَعْصُومٌ مُخْتَارٌ وَلِكِنَّهُ خُوطِبَ بِهَذَا وَالْمَقْصُودُ غَيْرُهُ. (الجامع لأحكام القرآن، 1964، ج 13 ص 142).

• إسماعيل بن كثير (ت 747 هـ)

يقول تعالى أمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أنّ من أشرك به عذبه، ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين. (تفسير القرآن العظيم، دت، ج 4، ص 349)

• ناصر الدين البيضاوي (ت 791 هـ)

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ): تهيج لازدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين. (أنوار التنزيل و أسرار التأويل، 1988، مج 2، ص 167)

• الطاهر بن عاشور (ت 1972 م)

فقوله: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ خِطَابٌ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ، فَيَعُمُّ كُلَّ مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مُوجَّهًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ الْمُبَلَّغُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. فَلِإِهْتِمَامِ بِهَذَا النَّهْيِ وَقَعَ تَوَجُّبُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ تَحَقُّقِ أَنَّهُ مُنْتَهَى عَنْ ذَلِكَ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ لِلَّذِينَ هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِالْإِشْرَاكِ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الزمر: 65]. وَالْمَقْصُودُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الْخِطَابِ غَيْرُهُ مِمَّنْ يَبْلُغُهُ الْخِطَابُ. (التحرير و التنوير 2008 ج 19 ص 200)

• محمد متولي الشعراوي (ت 1998 م)

خاطب الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } [ الشعراء : 213 ]، فهل كان صلى الله عليه وسلم مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر؟ قالوا : لا، إنما المراد ابتداء توجيهه، وابتداء تكليفه، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءاً، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر، لا أن الرسول اتخذ إلهاً، فجاء الوحي لينهاه، إنما هو بداية تشريع وتكليف، وإذا كان العظيم المرسل صلى الله عليه وسلم يتوعدده الله إن أراد أن يتخذ إلهاً آخر، فما بالك بمن هو دونه؟ فساعة يسمع الناس هذا الخطاب مُوجَّهًا إِلَى النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، فلا

بُدُّ أن يصغوا إليه، ويحذروا ما فيه من تحذير، كما لو وجَّه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً، والله المثل الأعلى، وحذَّره من عاقبة مخالفته، فلا شكَّ أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر. (خواطري حول القرآن الكريم، ...، ج1، ص6685)

إنَّ تفسير هذه الآية على هذا النحو من التّعسف على مقتضيات النحو العربي وبلاغة اللّغة العربيّة، بتحويل دلالة الضّمير المخاطب أنتَ في "لا تدع" وفي "فتكونن" إلى الغير، رغم ما جاء بعد ذلك: "وأندر عشيرتك" التي لا تحتل التّأويل، هو يعتبر إساءة إلى القرآن وسوء فهم لنضال النّبي وجهاده النّفسي والمادّي. ولا شكَّ أنّ لمسلّمة عصمة الرّسول في أذهان المفسّرين دوراً حاسماً في ما ذهبوا إليه من أقاويل، والحال أنّه ليس في الإيمان برسالة الإسلام في حبّ النّبي ما يتعارض مع الإقرار بإمكانية تردده – في مرحلة أولى على الأقلّ- في الخروج القطعيّ والنّهائي عن دين قومه.

## خاتمة:

لقد أردنا من خلال هذه المقاربة عن محمد، بصفته مخاطباً في القرآن، لفت الانتباه إلى ضرورة استئناف النّظر في الآي القرآنيّ، لاسيما المتعلّق منه بصاحب الرّسالة من منظور تاريخيّ، أنثروبولوجيّ، يعيد الاعتبار لصاحب الرّسالة عبر أنسنته ووضعها في منزلته البشريّة، عوض تجريده من إنسانيّته، بل تأليهه دونما وعي ربّما. وهذا بالفعل ما اقترفته مؤسّسة التّفكير الكلاسيكيّة بإطراد ملحوظ نحو الأسوأ على مرّ التّاريخ. وتكمن المفارقة هنا في أنّ المفسّرين الأوائل، مثل مقاتل بن سليمان وابن جرير الطّبري، كانوا أكثر أريحيّة، وأوسع أفقا، وأقرب إلى تمثّل صاحب الرّسالة على النحو الذي صورّه صوت الوحي. وإذا كنّا نتفهّم حقّ التّفهّم انحرافات المفسّرين القدامى، اعتباراً للسّياق التّاريخيّ الذي عاشوا فيه، ونظراً للعوائق الإيستمولوجيّة التي ما كان بقدرتهم تجاوزها، فإنّنا لا نفهم ولا يمكن أن نغفر للمفسّرين المعاصرين، (أمثال الطّاهر بن عاشور نفسه)، اكتفاءهم بما رده السّلف، سواء كان ذلك نتيجة كسل ذهنيّ أو افتقار للشّجاعة، بالمعنى الذي يتحدّث عنه كانط في مقاله الشّهير عن التّنوير.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com